

المنهج الإحصائي ودوره في فهم الظاهرة اللغوية

أ. صافية كساس

ج. تيزي وزو 

غير خاف على المهتمين بقضايا اللغة والأدب أن الاشتغال في أي حقل من هذه الحقول خارج مدار «المنهج» هو نوع من الفوضى المعرفية، ولا شك أن كل ممارسة معرفية من هذا القبيل قد لا تكفي بإفراغ التراث الخاص بأمة من الأمم من محتواه الإبداعي الحقيقي، بل تعمل على تحويله إلى عقبة من شأها أن تقف عائقا أمام كل نمو حضاري، وتطور معرفي، من هنا يكتسي المنهج في مجال اللغة والأدب قيمة كبيرة، إذ بفضل المنهج بنى فلاسفة الإغريق وعلماءها أنساقاً معرفية ما تزال إلى يومنا هذا تستبد بأفكار المعاصرين وتثير إعجابهم، كما امتلك العرب خلال عصور حضارتهم الذهبية مفاتيح التفكير، والتحليل، والإبداع، وأنتجوا أنساقاً فكرية وعلمية في مختلف المجالات، بحيث صارت منطلقاً للتفكير والرؤية لبناء النهضة الحديثة، وبفضل المنهج أيضاً ظهرت الثورات الثقافية في العصر الحديث في أوروبا والشرق والغرب على السواء؛ وهي قضية شغلت -ولا تزال- بالباحثين الأكاديميين على مختلف مشاربهم واختصاصاتهم، فلا يكاد أي بحث جامعي في الوقت الراهن يخلو من الخضوع لمنهج معين على حسب تخصص تلك الأبحاث الجامعية.

ويعد المنهج الإحصائي من بين أهم المناهج العلمية التي أضفت الصبغة العلمية على الأبحاث اللغوية، فهو منهج يهتم بدراسة وتحليل وتفسير الظاهرة خاصة بعد أن أصبح الحاسوب متاحاً للجميع، حيث استطاعت الإحصائيات الحاسوبية أن تُخرج

نتائج البحوث من حالة التخمين والارتجال، وسيادة التعبيرات المبهمة كالكثير والقليل، والشائع والنادر، إلى حالة الإحصاء الرقمي الذي يتعامل مع الحقائق على أنها قيم رقمية دقيقة؛ فما مفهوم المنهج؟ وعلى أي أساس يتم اختيار المنهج لدراسة الظواهر اللغوية؟ وما مدى أهمية قيمة المناهج في إعداد البحوث العلمية بصفة عامة والمنهج الإحصائي بصفة خاصة؟ ما هي عوامل ظهوره؟ وما هي أنواعه؟ وما هي خصائصه؟ وهل يعتبر هذا المنهج لوحده ضمن المناهج العلمية التي يعتمد عليها الباحثون لانجاز أبحاثهم من أجل الوصول إلى نتائج أكثر دقة أم أن هذا المنهج أتى خادماً للدراسات والمناهج اللغوية السابقة؟ ما هي خطوات المنهج الإحصائي؟ وما هي أساليبه؟ وما هي المجالات التي يستخدم فيها؟

مفهوم المنهج:

لقد وردت كلمة "منهج" في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمَنْهَاجًا﴾ (سورة المائدة، الآية 48).

لغة : أما إذا فتننا عن اللفظة في التراث اللغوي العربي، وفي المعاجم اللغوية بالتحديد، فإننا نجد جل المعاجم تتفق في تحديد لفظ (منهج) من حيث الجانب اللغوي والدلالي، ونبدأ بأقدم مصدر وقفنا عليه وثق كلمة المنهج، وهو: أساس البلاغة للزمخشري (ت 539 هـ)، حيث جاء عنه: "(ن هـ ج) أخذ النهج، والمنهج والمنهاج وطريق نهج، وطرق نهجة، ونهجت الطريق، بينته، وانتهجته، واستتبته، ونهج الطريق وأنهج، وأنهج: وضع، قال يزيد بن حذاق الشني: ولقد أضاء لك الطريق وأنهجت منه المسالك والهدى يعتدي¹؛ وأنهج الطريق: وضع واستبان، وصار نهجا واضحا بينا، والنهج بتسكين الهاء هو الطريق المستقيم²؛ وقد عرف المعجم الوسيط المنهج بأنه "الخطة المرسومة، واللفظة دلالتها محدثة، ومنه مناهج الدراسة، ومناهج التعليم ونحوهما³"، ويقابله Méthode في اللغة الفرنسية. ومن خلال هذا التعريف اللغوي نلاحظ خلطا بين المنهج والمنهاج والمنهجية، لذا قرّرت الفصل في حدود هذه المفاهيم.

اصطلاحاً: يعني الطريقة أو الأسلوب، فالقصد من هذا المصطلح الطريق أو السبيل أو التقنية المستخدمة لعمل شيء محدد، أو هو العملية الإجرائية المتبعة للحصول على شيء ما أو موضوع ما.

وقد وظف المنهج على أنه "التيار أو المذهب أو المدرسة، وعلى الرغم من تعدد هذه المصطلحات فهدف المنهج وغايته واحدة، وهو الكشف عن الطريقة أو الأسلوب لتيار معين، أو مذهب معين، أو مدرسة معينة"⁴، أي: هو فن التنظيم السليم لسلسلة من الأفكار قصد الوصول إلى الحقيقة في العلم

"إنه الطريقة التي يتبعها الباحث في دراسة المشكلة لاكتشاف الحقيقة، أو الوصول لتحقيق الغاية المراد الوصول إليها"⁵، ويستعمل في كثير من الأحيان مرادفاً للطريقة: Méthode، ومن هنا فإن كلمة المنهج "يمكن إرجاعها إلى طريقة تصوّر وتنظيم البحث،..... إنه يتدخل بطريقة أكثر أو أقل إلحاحاً، بأكثر أو أقل دقة في كل مراحل البحث"⁶ باعتباره نظاماً تتداخل فيه مجموعة من المكونات والعوامل التي ترتبط ببعضها البعض ارتباطاً عضوياً في تتبع ظاهرة، أو استقصاء خبايا مشكلة ما لوصفها، أو لمعرفة حقيقتها، وأبعادها ليسهل التعرف على أسبابها، وتفسير العلاقات التي تربط بين أجزائها، ومراحلها، وصلتها بغيرها من القضايا، والهدف من وراء ذلك هو الوصول إلى نتائج محددة يمكن تطبيقها وتعميمها في شكل أحكام أو ضوابط وقوانين للإفادة منها فكرياً وفنياً.

أما المنهاج: فهو -بحسب ما جاء في كتاب المناهج اللغوية⁷- خطة عمل، تتضمن الغايات والمقاصد والأهداف والمضامين والأنشطة التعليمية ثم طرائق التعليم وأساليب التقويم، أو سلسلة الوحدات الموضوعية بكيفية تجعل تعلم كل وحدة يمكن أن يتم انطلاقاً من فعل واحد شريطة أن يكون المتعلم قد تحكّم في القدرات الموصوفة في الوحدات السابقة، ومن هنا يقال منهج التدريس الذي هو: مجموعة من الأنشطة المخططة من أجل تكوين المتعلم يتضمن الأهداف والأدوات ومقررات المواد وغايات

التربية وأنشطة التعليم والتعلم، وكذلك الكيفية التي سيتم بها تقويم التعليم والتعلم، ويعول عليه في تصميم السياسة اللغوية في ميدان التربية باعتباره ينظر إلى الأطر الكبرى التي يدور ضمنها برنامج التدريس، فهو محتوى لا كيفية.

المنهجية: La méthodologie من المنهج⁸، وهي مجموع المناهج، والتقنيات، والطرائق المستعملة في حقل من النشاطات التي توجه إلى إعداد البحث، فنقول : منهجية التدريس، ونعني بها: مجموعة القواعد المتبعة أو الوسائل المستعملة لتحقيق غايات التدريس، كما يقال: إنه منهج، وهي صفة ترتبط بكل تخطيط معقلن، ينطلق من أهداف ليصمم ويلور عمليات بلوغها وإجراءات تقويمها. وترتبط أكثر بما يضعه الباحث لبحثه من خطة واضحة المعالم يسير عليها في البحث حتى ينفذها بدقة تامة. وتنفيذ المنهج هو إحدى العمليات الرئيسة للصناعة المنهجية.

تعريف المنهج الإحصائي:

لتعريف المنهج الإحصائي لا بدّ من المرور أولاً على بيان معنى كلمة "إحصاء" التي يفهمها أغلب الناس على أنها جمع المعلومات، وعرضها في جداول ورسوم بيانية، وقد يفهمها طائفة قليلة من الناس في إطار حساب المتوسطات، والنسب المختلفة.

أما في اللغة العربية: فيعني العد الشامل.

واصطلاحاً: هو "العلم الذي يدرس كيفية جمع المعلومات من المجتمعات الإحصائية المختلفة سواء بالعد الشامل أم بالمعينة، وكيفية تحويل هذه المعلومات إلى بيانات رقمية في جداول إحصائية بالإضافة إلى الأساليب المختلفة التي يمكن استخدامها لتحليل هذه البيانات تحليلاً رياضياً لاستنتاج المقاييس المختلفة، وأخيراً كيفية تفسير النتائج التي تصل إليها باستخدام هذه الأساليب في التحليل، ثم توضيحها في تحرير نهائي عن موضوع الدراسة الذي أردنا دراسته باستخدام الطريقة الإحصائية"⁹. ومن هنا فإنّ علم الإحصاء يُعنى بالأساليب الإحصائية التي يلجأ إليها الباحث سواء في العلوم الطبيعية أم الاجتماعية للتعرف على الحقائق الخاصة بالظواهر والمشاكل موضع البحث....

وبهذا يكون التعريف الاصطلاحي للمنهج الإحصائي على أنه: "فرع من الدراسات الرياضية التي تعتمد على جمع المعلومات والبيانات لمدونة معينة وتنظيمها، وتبويبها، وعرضها جدولياً أو بيانياً، تم تحليلها رياضياً، واستخلاص النتائج بشأنها والعمل على تفسيرها"¹⁰، أي: هو يعني مجموعة من الأدوات في متناول الباحث، ويطلق عليها الطرائق الإحصائية المتبعة لتلخيص وتصنيف وتحليل البيانات العديدة، وإيجاد العلاقة بينها.

أما من الناحية الإحرائية: فيعرف المنهج الإحصائي على أنه: عبارة عن "مجموعة من الأساسيات المتنوعة المستعملة لجمع المعطيات الإحصائية وتحليلها رياضياً لعرض إظهار الاستدلالات العلمية التي قد تبدو في الغالب غير واضحة"¹¹، وهو بذلك "يعكس البحث العلمي في صورة رياضية بالأرقام والرسوم البيانية أي في صورة كمية"¹² بغية الوصول إلى نتائج أكثر دقة، و يقينية، وعلمية بخصوص الظاهرة المدروسة.

وفي الأخير يمكن القول بأن المنهج الإحصائي هو عبارة عن استخدام الطرائق الرقمية والرياضية في معالجة وتحليل البيانات، وإعطاء التفسيرات المنطقية المناسبة لها؛ وهو في صورته الحديثة أحد الدعامات الرئيسية التي تقوم عليها الطريقة العلمية للبحث في العلوم الاجتماعية والعلوم المتصلة بأي لون من ألوان الحياة.

الجدور التاريخية لعلم الإحصاء والمنهج الإحصائي:

يعد المنهج الإحصائي من بين المناهج العلمية التي أضفت الصيغة العلمية على الأبحاث السياسية والاجتماعية والتي تهتم بدراسة وتحليل الظاهرة من الناحية الكمية، ويرجع ظهوره في ميدان العلوم الاجتماعية إلى التعاون السائد بين هذه العلوم والرياضيات في العهد الإغريقي، ولاسيما لدى الفيثاغورسيين الذين كانوا يستخدمون الإحصاء في أبحاثهم، إلا أن فكرة الإحصاء بمعنى الحصر والعد فكرة قديمة جداً ترجع إلى عصر بعيد في تاريخ الإنسانية، حيث جرى استخدامه في تدبير سياسة الدول عند الفراعنة المصريين. حين قام بناة الأهرام بتنظيم مشروع البناء، كما كانوا يحصون

السكان، والأراضي، والمنتجات من أجل بسط وتمكين النظام السياسي للدولة الفرعونية من أجل التحكم والسيطرة على الموارد البشرية والمادية وتوجيهها لخدمة الحضارة المصرية، وتطويرها، وتوسيعها، والحفاظ على مقوماتها؛ وفي العصور الوسطى نجد أن الملوك ورؤساء القبائل قاموا بمثل هذه العملية ليتعرفوا على عدد ما لديهم من الرجال ومقدرتهم على الدفاع عن أوطانهم، أو مهاجمة الغير. ومن هنا فإن استخدام الإحصاء عند هؤلاء كان مقصوراً على الأعمال الخاصة بشؤون الدولة كما يدل عليه ذلك الأصل اللغوي في الإنجليزية Statistiques، وهو مشتق من كلمة "state" أي الدولة؛ ومعناه: مجموعة الحقائق الخاصة بشؤون الدولة.

ولفظ الإحصاء وارد بكثرة في التراث الإسلامي والعربي، ففي القرآن الكريم نجده وارد في أكثر من موضع؛ ومثال ذلك قوله تعالى: {وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا} [الجن/28]، وقوله: {أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} [المجادلة/06]، وقوله كذلك جلّ وعلا: {مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا} [الكهف/49]، وقوله تعالى: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا} [إبراهيم/34]. ومن هنا يمكن القول: إن التراث الإسلامي أصلٌ من أصول الفكر الإحصائي بمناهجه وطرائقه، سواء من حيث العدُّ أم القياس؛ ومن دلائل ذلك إسهامات علماء المسلمين في علوم الرياضيات، ومنهم البيروني في علوم الفلك والرياضيات، والتي كانت أساساً لعلم الإحصاء فيما بعد.

ولكن لا ننكر ما للحضارة الغربية من دور في تطوير علم الإحصاء وإرساء العديد من المعالجات والاستخدامات لهذا العلم في العديد من أوجه الحياة الإنسانية، وبدأ هذا الاتجاه على يد المؤرخ الدانماركي: Ankerson عام 1741م؛ غير أن استعماله تعزز، وتجلت قيمته العلمية والعملية واضحة في أبحاث كل من: (أميل دوركايم، وهال واكس) حول ظاهرة الانتحار، كما ساهمت دراسة كل من (مونتير، وروسو) في تطور المنهج الإحصائي في ميدان العلوم الاجتماعية، وقد شمل هذا التطور

جميع العلوم الأخرى: الإدارية، والسياسية، والقانونية، والاقتصادية، والنفسية، وغيرها من العلوم الأخرى، ويرجع سبب تطور استعماله في العلوم المختلفة إلى التطور التكنولوجي الهائل، وما نتج عنه من تطور في مجال الحاسبات الإلكترونية، والطرائق، والوسائل الإحصائية الأخرى، مثل النظام الإحصائي (SPSS, EXEL).

وهكذا أصبح علم الإحصاء لغة مشتركة وضرورية في كافة الفروع والتخصصات العلمية، لما يقدمه من تبسيط، وسهولة، ووضوح، وإدراك لأبعاد المتغيرات والظواهر المختلفة، وعلاقتها المتنوعة، وتأثيراتها المباشرة وغير المباشرة على الإنسان، أمّا علم الإحصاء الآن فهو علم مستقل له نظرياته وقواعده، وله مناهج وتقنيات يعتمد عليها لحل الكثير من المشكلات الاجتماعية وغيرها. ولما كان المنهج الإحصائي يستند في بُناه النظرية والمنهجية على النظريات الرياضية فقد استطاع أن يخطو خطوات واسعة نحو الدقة والموضوعية، والبناء العلمي، ومن هذا الارتباط ترتب ظهور علوم جديدة هي: علم الإحصاء الرياضي، الميكانيكا الإحصائية، وعلم النفس الإحصائي، علم الحياة الإحصائي، وعلم الاقتصاد الإحصائي، والديمُغرافية الإحصائية...

أنواع المنهج الإحصائي: هنالك نوعان للمنهج الإحصائي:

أ- **المنهج الإحصائي الوصفي:** يركز على وصف وتلخيص الأرقام المجمعة حول موضوع معين وتفسيرها في صورة نتائج، حيث إنّ هنالك مفاهيم وأساليب متعددة لتلخيص البيانات ووصفها، وتحليلها حتى يسهل تفسيرها.

ب- **المنهج الإحصائي الاستدلالي أو الاستقرائي:** يعتمد هذا المنهج على اختيار عينة من مجتمع أكبر وتحليل، وتفسير البيانات الرقمية المجمعة عنها، والوصول إلى تعميمات واستدلالات على ما هو أوسع وأكبر من المجتمع محل البحث.

خصائصه: للمنهج الإحصائي عدّة خصائص تتجلى في النقاط التالية:

1- يعتبر منهجا كميا يركز على الإحصاء، وبالتالي يساعد على تفسير الظواهر تفسيراً كمياً.

2- يتميز بالنتائج الدّقيقة باعتماده اللغة الرياضية، مما يساعد على التنبؤ الدقيق في ميدان الظواهر المدروسة .

3- يعتبر وسيلة منطقية استقرائية تقوم بتحليل الظاهرة الاجتماعية انطلاقاً من جزئياتها وصولاً إلى كلياتها، ويتجلى ذلك واضحاً في طريقة سبر الآراء حيث يظهر التكامل المنهجي بين المنهج الإحصائي والاستقرائي¹³.

4- يتميز بالحكم الموضوعي على الظواهر المدروسة، لأنّ الأرقام هي التي تتكلم، وتبين طبيعة الظاهرة.

أهمية المنهج والمنهج الإحصائي في الدراسات العلمية والأكاديمية:

إنّ المنهج هو الأساس الذي يقوم عليه البحث العلميّ، فهو كالبوصلة التي يعتمد عليها البحّار في توجيه سفينته، والوصول بها إلى الساحل، وبدونها يظلّ تائهاً في البحر، ولا يهتدي إلى سبيل النجاة. ومن هنا فإنه لا سبيل للباحث، أيّا كان، أن يتناول ظاهرة أو قضية ما من غير أن يسير على هُدى أي منهج؛ لأنّ حاله هذه لن تختلف عن حال البحّار الذي يقود سفينته من غير بوصلة؛ "والتحكم في المنهج "ركن في المعرفة يوصل إلى الحقيقة التي يتطلبها البحث العلمي المعاصر... حيث إن أحسن ما يجنب الطالب السقوط في الأحكام التعسفية هو تسليحه بالمنهجية العلمية، وبأدوات التحكم في استعمالها، وسبب تقدم الشعوب هو تحكمهم في المنهج واعتمادهم على الدقة والموضوعية¹⁴"، والمنهج بوصفه إطاراً علمياً يساعد على كشف جماليات النصوص، وفهم مكوناته، وأبعاده الدلالية، إذ هو: «طريقة في البحث توصلنا إلى نتائج مضمونة أو

شبه مضمونة في أقصر وقت ممكن، كما أنه وسيلة تحصن الباحث من أن يتيه في دروب ملتوية من التفكير النظري¹⁵"، وهو بهذا المفهوم المفتاح الإجرائي يساعدنا على كشف بواطن النصوص وحقائقها، لأنه ليس مجرد أداة منهجية فحسب، وإنما يخرّز رؤية خاصة للعالم شارك في تفعيلها مجموعة الخلفيات السوسيو-ثقافية وغيرها التي أدت إلى ظهوره،

وبالتالي فهو يساعدنا على رصد أبعاد النص الإبداعية؛ فمن الصعب على المرء أن ينجز مجموعة من الأعمال والمشاريع بدون أن يضع لنفسه خطة إستراتيجية منهجة للوصول إلى الأهداف المنشودة.

وقد أدرك علماءنا اللغويون أهمية المنهج منذ البداية لهذا كان تركيزهم أثناء جمع اللغة قائم على منهج علمي عملوا من خلاله على جمع المادة اللغوية من قبائل أكثر فصاحة، وتركوا تلك القبائل التي تعرضت إلى الاختلاط اللغوي بسبب التحضر واختلاط الأجناس اللغوية، سمي فيما بعد بالمنهج المعياري، لان هدفهم أن يحافظوا على نمط لغويّ محدّد هو النمط القرآنيّ، وأن يضعوا اللغة في قواعد (معايير) جاهزة، لإتاحتها للمتعلّمين العرب وغير العرب. وفي سبيل ذلك اتّجه النحاة إلى وضع معيار زمنيّ، وآخر مكانيّ، تتحدّد في ضوءهما ملامح اللغة، وقد حدّدوا الزمان بمائة وخمسين قبل الهجرة، ومائة وخمسين بعد الهجرة. أمّا المكان، فقد اتّخذوا لغة أهل نجد والحجاز معياراً للحكم على صحّة اللغة. ولقد نأى المعياريون - من أجل ذلك - باللغة عن الفروق اللهجيّة بين القبائل، فأخذوا بالمتلف، وأقصوا المختلف، ثم بعدها أتى المنهج الوصفي الذي يرى "أنّ اللغة الحقيقيّة هي التي يستخدمها الناس فعلاً، لا اللغة التي يعتقد (البعض) أنّ على الناس أن يستخدموها"¹⁶ وبالتالي فإنّ الوصفية تأخذ منحىً آخر، يتمثل في دراستها اللغة بصورتها المنطوقة، لا المكتوبة، وتهمّ بدراسة الفروق اللهجيّة بوصفها أنساقاً لغويّة مستعملة في بيئاتها. وعلى غرار هذا المنهج، فإنّ المنهج التاريخي يدرس اللغة بوصفها ظاهرة متطورة عبر الزمان والمكان أملاً في تشكيل تصوّر عام حول ملامح التطوّر للغة عبر مراحلها الزمنية، والمنهج المقارن الذي يدرس الظاهرة اللغويّة في اللغات التي تنتمي إلى أرومة واحدة، كدراسة أسلوب الشرط في اللغات السامية، أو دراسة بنية الجملة الاسمية أو الفعلية في اللغات الحامية أو الهنديّة الأوروبيّة. أما هدف المنهج المقارن فهو تأصيليّ يسعى إلى رصد نقاط الالتقاء والتقاطع بين اللغات التي تنتمي إلى أسرة واحدة في سبيل تصنيف اللغات في أسر لغويّة، وملاحظة عمليّة التأثير والتأثر في الأسرة

الواحدة. والمنهج التقابليّ يهتمّ بالمقارنات اللغويّة بين اللغات التي لا يجمعها أصل واحد. وقد أسدت المناهج اللغويّة فوائد لا تحصى في خدمة اللغات، وما معجم (oxford) التاريخيّ إلا ثمرة من ثمار المنهج التاريخي في خدمة اللغة الانجليزية¹⁷، فقد رُصدت الألفاظ تاريخياً بُغية المحافظة على اللغة، وربط حاضرها بماضيها.

أمّا المنهج الإحصائي، فقد أتى خادماً للدراسات اللغويّة والمناهج اللغويّة السابقة، خاصة بعد أن أصبح الحاسوب متاحاً للجميع، حيث استطاعت الإحصاءات الحاسوبية أن تُخرج نتائج البحوث من حالة التخمين، والارتجال، وسيادة التعبيرات المبهمة كالكثير والقليل، والشائع والنادر، إلى حالة الإحصاء الرقميّ الذي يتعامل مع الحقائق على أنّها قيم رقميّة دقيقة؛ وقد بات من الميسور على الباحثين -بفضل الجهود الإحصائيّة- أن يرصدوا الظواهر اللغويّة بدقّة، سواء أكان ذلك في المفردات أم في التراكيب؟ وبفضل الدراسات الإحصائيّة تبذدت كثير من المعلومات التي شاعت، وترسخت على أنّها حقائق، فعلى سبيل المثال أظهرت الدراسات الإحصائيّة - في باب الشرط - أنّ (إذا) ، أو (لو) أشيع في الاستعمال من (إذا ما)، أو (أيّان)، وهو أمر يخالف ما ورد في كتب النحو التي لا تذكر (إذا) و(لو) لأسباب تتعلق بالعامل النحوي¹⁸، وفي دراسة قام بها إسماعيل أحمد العمارة أثبت الفرز الإحصائي مثلاً "أنّ الفعل الماضي أكثر شيوعاً من المضارع المجزوم في جملة الشرط، حتى إن نسبة شيوعه في بعض النصوص - ككتاب الرسالة للإمام الشافعي، المجلد الأوّل - قد بلغت 100%¹⁹". ومن هنا ندرك عملياً قيمة العمل الإحصائي في فرز القواعد اللغويّة عن طريق بناء جداول توضع فيها مثلاً الكلمات المشتقة من أصل واحد، وبناء نسق لها، تظهر لنا الكلمات التي تتكرر مرات عديدة في نص ما، مما يوحي بعلاقة حميمة بمرات تكرارها، وحسب هذا المنهج يتم الاستناد إلى نظرية الحقول الدلالية، ولكي نفهم معنى كلمة ما يجب أن نفهم مجموعة الكلمات المتصلة بها دلاليّاً، ثم دراسة العلاقة بين تلك المفردات في الحقل الواحد. ومن

هنا فإنَّ المنهج الإحصائي أحد الدعامات الرئيسية التي تقوم عليها الطريقة العلمية للبحث في العلوم الإنسانية وغيرها، وتظهر أهميته فيما يلي:

1- يعرفنا على عدد ونوعية الأفراد العاملين ومعدل الدخل الفردي، كما "تتمثل ميزة هذا المنهج في وجود الإحصائيات والمعلومات المبوبة، وتسجيل كامل العلامات السابقة التي يمكن مراجعتها عند الضرورة ثم التعرف على الأدلة والأسباب التي تستخلص من الإحصائيات المتوفرة، ويستعمل في دراسة عينة من العينات حيث يحاول أن يحصي ظواهر مرتبطة بموضوع الدراسة وفقا لمقاييس متنوعة، وبذلك يمكن التعرف على المجموع الكلي للموضوع"²⁰.

2- يساعدنا الإحصاء على تقييم أيِّ نوع ممكن من الوصف للمعطيات التي نحصل عليها، وإذا كان الوصف الدقيق من أهداف العلم الذي يسعى إلى وصف الظواهر التي ندرسها، فإنَّ الوصف الإحصائي أكثر دقة وأكثر صحتة من الوصف اللفظي، والدقة والموضوعية من سمات العلم.

3- تدفعنا المناهج الإحصائية إلى التعمُّد على الدقة والتحديد في خطوات البحث وفي تفكيرنا لأنَّ المعايير والناتج تصبح محدَّدة ومعرفة تعريفاً كمياً.

4- تساعدنا الوسائل الإحصائية في تلخيص نتائج البحث بطريقة ذات معنى ودلالة، وبطريقة سهلة ومريحة، فالمعلومات المبعثرة التي يحصل عليها الباحث تظلُّ في حوزتها عديمة المعنى حتى تنالها مهارة الباحث الإحصائية.

5- يجعلنا الإحصاء نرى الأشياء واضحة ومنظمة، بل إنه ينشئ نظاماً واضحاً للأشياء والعلاقات بينها، ويساعدنا على رؤية النتيجة وفهمها من مجرد نظرة عابرة.

6- يساعدنا الإحصاء في استنتاج النتيجة العامة، ويخضع هذا الاستنتاج لقواعد ثابتة وقوانين رسمية ومقبولة من جميع العلماء والباحثين، بل إن الإحصاء يساعدنا في مدى الثقة التي نعطيها لما نحصل عليه من النتائج، وإلى أي مدى يمكن تعميم ما نصل إليه.

7- يجعلنا نستطيع أن نتنبأ بحدوث ظواهر معينة عن طريق الوسائل الإحصائية.

8- يُساعدنا الإحصاء على معرفة علل وأسباب بعض الظواهر، وذلك عن طريق ضبط العوامل والمتغيرات، ومعرفة أثر كل عامل على حدة.

وما يمكن استنتاجه من خلال أهمية هذا المنهج أنه يستعمل في عديد من المجالات، منها: العلوم القانونية، والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، والإدارية، والنفسية وغيرها من العلوم الدقيقة لظواهرها المختلفة، حيث أصبح المنهج الإحصائي المنهج الذي يعتمد عليه من قبل الباحثين في مختلف الميادين العلمية، وفي إعداد دراساتهم، وتحليل ظواهرهم، فهل يمكن اعتماده لوحده في الدراسات اللغوية؟ أم أن اعتماده في دراسة اللغة غير كاف، ويتطلب الاستعانة ببقية المناهج الأخرى حتى تستوي الدراسة؟

اتحاد المناهج:

إنّ الخطوة الأولى التي يجب على الباحث اللغوي أن يكون على علم بها هي أن يكون على إلمام تام بمختلف المناهج التي يمكن تطبيقها في المجال اللغوي، بمعرفة خصائصها وطرائقها، ومعاييرها، وكيفية استغلالها في انجاز الأبحاث الأكاديمية، حيث تلعب المناهج اللغوية دوراً مهماً في كشف ملامح الظاهرة اللغوية، وهي سلاح الباحث في بحثه عن الحقيقة. وللباحث أن يتخير منها ما يشاء، فهي تؤدّي الغرض من جانب، وتصور المشهد من زاوية. ولكن سير الباحث على منهج ما، لا يعني بالضرورة أن لا يستعين بالمناهج الأخرى، -مهما كان هذا المنهج- بل إن ما يعزز نتائج البحث، ويجعلها أكثر دقة وموضوعية هو الاستعانة بكل إمكانات المناهج، وتسخيرها في رصد الظاهرة اللغوية من جوانبها كلّها، لأنه "لا يوجد منهج شامل كامل يكتفي بنفسه، وإن الخلط يأتي من التداخل بين الهدف والوسيلة، ومختلف الإجراءات التي يعرفها كل موضوع أثناء التحليل"²¹، والمنهج الإحصائي له أهمية كبيرة في وصولنا إلى نتائج أكثر دقة، ولكن حتى نخل تلك النتائج نحتاج إلى منهج آخر كالمنهج الوصفي التحليلي -على سبيل المثال لا الحصر- وهكذا فإن كل موضوع يحتاج إلى نوع معين من المناهج العلمية الملائمة له. ومن هنا فإن الظاهرة اللغوية تبدو كالمكعب -كما يصورها إسماعيل

عمامرة- "لا يكفي لوصفها أن تسلط عليها الضوء من نور مصباح واحد يضيء سطحاً واحداً من مساحاتها، وتحفّي عندئذٍ أسطحها الأخرى، ولذا كان أدعى في محاولة الإحاطة بحقيقتها أن تسلط على أبعادها أضواء المناهج المتعدّدة، وبمقدار الحاجة إلى ذلك"²²، وبالتالي فالمناهج تكمل بعضها البعض، وينتج عنها في معظم الأحيان حقائق جديدة لم نكن نعرفها، أي: بفضل استعمالنا لمختلف الأساليب العلمية، والمناهج المتعددة قد نصل إلى اكتشاف ظواهر لم تخطر على البال.

وما تجدر الإشارة إليه هنا هو أنه ينبغي لمن أراد أن يسير على منهج ما أن يكون متمكناً منه وعلى بصيرة بخطواته وأدواته؛ إذ إنّ لكلّ منهج فلسفته، وأدواته، ومنهجيته في التعاطي مع آية ظاهرة؛ فالمنهج المعياري يختلف في خطواته، وأدواته، وفلسفته، عن المنهج الوصفي، والمنهج الوصفي - كذلك - يختلف في خطواته، وأدواته، وفلسفته عن المنهج التاريخي، ونحو ذلك يمكن أن يقال في سائر المناهج لأنّ معرفة الشيء فرع من تصوره، ومتى غاب تصور المرء للشيء غابت إمكانية تعامله معه، أو تعامله به، ومن هنا تظهر أهمية المنهج في معالجة القضايا التي نواجهها في حياتنا لأن الوصول إلى النتائج الحاسمة، والموضوعية لا يتأتى إلا باتخاذ المنهج المناسب سبيلاً إلى الدراسة، وكلما وفقنا في اختيار المنهج المناسب، كانت النتائج المرصودة أكثر إقناعاً، ولا يعني أن تكون المناهج اللغوية، وغير اللغوية بضاعة غريبة، طالما تُعِيننا في فهم اللغة، واكتشاف أسرارها وبيان معالمها، ولا تمسّ ثوابتنا الفكرية والعقدية، "فالحكمة ضالة المؤمن، أتى وجدها، فهو أحقّ بها".

قائمة المصادر والمراجع

المعاجم:

- 1_ ابن منظور، لسان العرب، ط 1. بيروت: 1988، دار إحياء التراث العربي.
- 2_ مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، ط 2. مصر: 1973، دار المعارف بمصر.

المراجع:

- 1_ إسماعيل عمايرة، المستشرقون والمناهج اللغوية.
_ محاضرات في المدارس اللسانية، 2010، جامعة العلوم الإسلامية العالمية.
 - 2_ الزمخشري، أساس البلاغة، تح: أحمد عبد الرحيم محمود، بيروت، دار المعرفة.
 - 3_ أجمد إبراهيم سعادة وآخرون، الإحصاء والاحتمالات في التطبيقات الهندسية، 2005، دار الفجر للنشر والتوزيع.
 - 4_ حسين عبد الحميد أحمد رشوان، العلم والبحث العلمي -دراسة في مناهج العلوم الطبيعية- الإسكندرية: 2004.
 - 5_ حلام الجيلالي، المناهج النقدية المعاصرة، 2004.
 - 6_ صالح بلعيد، في المناهج اللغوية وإعداد الأبحاث، الجزائر: 2005، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع.
 - 7_ عبد القادر حليمي، مدخل إلى الإحصاء، الجزائر: 1994، ديوان المطبوعات الجامعية.
 - 8_ عبد المجيد علي عابدين، مزالق في طريق البحث اللغوي والأدبي وتوثيق النصوص، بيروت، دار النهضة العربية.
 - 9_ عبد الناصر جندلي، تقنيات ومناهج البحث في العلوم السياسية والاجتماعية، الجزائر: 2005 ديوان المطبوعات الجامعية.
 - 10_ موريس أنجرس، Initiation pratique à la méthodologie des sciences humaines تر: بوزيد صحراوي وآخرون، الجزائر: 2004، دار القصة للنشر.
 - 11_ نور الهدى لوشن، مباحث في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، الإسكندرية 2000، المكتبة الجامعية.
- مواقع الانترنت:
- 1_ إسماعيل أحمد عمايرة، تطلعات مستقبلية في تعليم العربية، www.isesco.org.

الهوامش والإحالات :

- 1_ينظر: الزمخشري، أساس البلاغة، تج: أحمد عبد الرحيم محمود، بيروت، دار المعرفة.
- 2_ابن منظور، لسان العرب، ط 1. بيروت: 1988، دار إحياء التراث العربي، مادة نهج.
- 3_مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، ط2. مصر: 1973، دار المعارف بمصر، مادة نهج.
- 4_ نور الهدى لوشن، مباحث في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، الإسكندرية 2000، المكتبة الجامعية، ص 285.
- 5_ عبد المجيد علي عابدين، مزالق في طريق البحث اللغوي والأدبي وتوثيق النصوص، بيروت، دار النهضة العربية ص 44.
- 6_ مورييس أنجرس، Initiation pratique à la méthodologie des sciences humaines، تر: بوزيد صحراوي وآخرون، الجزائر: 2004، دار القصبة للنشر، ص 99.
- 7_ صالح بلعيد، في المناهج اللغوية وإعداد الأبحاث، الجزائر: 2005، دار هومة، ص 14/13.
- 8_ نفسه، ص 16.
- 9_ أمجد إبراهيم سعادة وآخرون، الإحصاء والاحتمالات في التطبيقات الهندسية، 2005، دار الفجر للنشر والتوزيع ص 14.
- 10_ عبد الناصر جندلي، تقنيات ومناهج البحث في العلوم السياسية والاجتماعية، الجزائر: 2005، ديوان المطبوعات الجامعية، ص 213.
- 11_ عبد القادر حليمي، مدخل إلى الإحصاء، الجزائر: 1994، ديوان المطبوعات الجامعية، ص 24.
- 12_ حسين عبد الحميد أحمد رشوان، العلم والبحث العلمي -دراسة في مناهج العلوم الطبيعية- الإسكندرية: 2004، ص 170.

- 144